الفصل الثالث

القرآن الكريم

يحتمل أن هذا الجبل الحجرى المتماسك ، يصبح خاشعا متصدعا من خشية الله[١] . وأن هذه الأحجار القاسية التى لا تلين ، قد تتفجر منها الأنهار ، أو تنشق عن الماء ، أو تهبط من خشية الله[٢] . وأن هذه الجبال التى تبدو جامدة تمر مر السحاب[٣] . وأن السماء التى تبدو سميكة خرساء تشقق بالغمام وينزل منها الملائكة تنزيلا[٤] . أو التى تبدو رصاصية ثقيلة تنشق وتصير وردة كالدهان[٥] . ويحتمل أن الجبال تسير والأرض تتقطع والموتى يتكلمون[٦] .

تحتمل كل هذه الأوصاف مادمنا داخل الطبيعة العربية ، التى لا تكتفى بهذا الوجه الخشن الظاهر الخارجى الساكن ، بل تلمح وراءه وجها آخر خضرا ومتحركا ، إنها لا تقف عند حد الجبال والصمت والهجير والحجارة التى لا تلين والأرض الجرز والموتى الذين لا ينطقون . بل قد ينبت المرعى فوق دمن الثرى كما قال الشاعر[٧] ، وقد يساق الماء إلى الأرض الجزر فتخرج زرعا[٨] ، وقد تهتز الأرض الهامدة وتنبت

---

(١) « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » سورة الحشر ٢٠ .

(٢) « وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » سورة البقرة ٧٤ .

(٣) « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء انه خبير بما تفعلون » سورة النمل ٨٨ .

(٤) « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا » سورة الفرقان ٢٥ .

(٥) « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » الرحمن ٣٧ .

(٦) « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا » الرعد ٣١ .

(٧) لسان العرب « خضر » ، قال زفر بن الحارث :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

(٨) « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا ، تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » السجدة ٢٧ .

من كل زوج بهيج[1] ، وقد يفلق الحب والنوى فيخرج منه النبات كما يخرج الحى من الميت والميت من الحى[2] .

وتلك هى الصورة التى يقدمها القرآن الكريم ، إنه لا يقف عند السطح الخارجى الذى قد يبدو للمنبت فى الصحراء ، ولكنه يلمح الجانب الآخر ، فمع الحرور يتحدث عن الظل ، ومع النار يتحدث عن الجنة ، ومع القوة يتحدث عن الرحمة ، ومع الأول يتحدث عن الآخر ، ومع الهجير يتحدث عن الماء ، ومع الظلمات يتحدث عن النور ، ومع الموتى يتحدث عن الأحياء ، ومع الكافر يتحدث عن المؤمن ، ومع الأعمى يتحدث عن البصير ، ومع السكون يتحدث عن الحركة .

نقرأ التوراة فنحس بجانب واحد من الصورة ، وهو جانب العنف والقسوة والحرور والنار والهجير ، إن الإله حين ينزل تبدو رعود وبروق وسحاب ويدخن الجبل « كدخان الآتون »[3] ، ويبدو منظر الرب « كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل »[4] ، ويمجده الإسرائيليون بعد نجاتهم من فرعون بترنيمة تشيد بجانب القوة والبطش عنده « يمينك يارب معتزة بالقدرة ، يمينك يارب تحطم العدو . وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك ، ترسل سخطك فيأكلهم كالقش . وبريح أنفك تراكمت المياه ، انتصبت المجارى كرابية ، تجمدت اللجج فى قلب البر »[5] . أما موسى فإنه ينطلق فى الأرض كإعصار شديد ، يقتل ويغضب ويكسر الألواح ، ويخاطب الرب بلهجه تصل إلى حد التقريع « لماذا يارب تحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ، لماذا يتكلم المصريون قائلين : اخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض ، ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك »[6] .

---

(١) « وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » الحج ٥ .

(٢) « ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » الأنعام ٩٥ .

(٣) سفر الخروج الاصحاح ١٩ .

(٤) الخروج ٢٤ .

(٥) الخروج ١٥ .

(٦) الخروج ٣٢ .

وتقرأ الانجيل فتحس بجانب واحد من الصورة ، إنه يقدم لنا الرحمة والتسامح وتكران الذات ، إن المسيح يتجول فى الأرض ، كأنه نسمة خفيفة تأتى من الجليل ، أو حمامة لا تعرف إلا غصن الزيتون ، يلقى يسوع بموعظة على تلاميذه ، تختلف عن الشريعة القديمة التى تقوم على القصاص ، وتسن لها طريقا مقابلا « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك علي خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين . من سألك فاعطه ، من أراد أن يقترض منك فلا ترده . سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم : احبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم . لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين . لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم ، أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك . وان سلمتم على اخوتكم فقط فأى فضل تصنعون أليس العشارون أيضا يفعلون هكذا . فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل »[1] .

وقد نقرؤهما معا مجموعين فى الكتاب المقدس ، فلا يقدمان الصورة متكاملة ، فالتوراة تتحدث من منطلق واحد ، يغيب عنه الوجه الآخر ، وكأننا فى عالم القوة والغلبة ، والإنجيل يتحدث من منطلق واحد ، يغيب عنه الوجه الآخر أيضا ، وكأننا فى عالم الملائكة . إن الخير لا يفترض الشر ، والقوة لا تعترف بالضعف البشرى ، ومن هنا نرى فى جانب (العهد القديم) الأعاصير والنيران المتأججة ، ونرى فى الجانب الآخر (العهد الجديد) السكون والطهر والزهد . أما القرآن الكريم فنرى فيه الوجهين متكاملين ، إنه يتحدث عن جانب وعينه على الجانب الآخر ، فالحجارة قد تلين ، وقد تتشقق عن المياه ، وقد ينبت فوقها الزرع ، والأرض الهامدة قد تهتز بكل زوج بهيج ، وبهذا المفهوم ابتعث الحركة التى تنتقل بين الشيئين ، ولا تجمد عند موقف واحد ، وكشف عن الصراع الصحى والذى لابد منه لطبيعة الحياة ، فلا يكفى أن يتجاور العهدان فى مجلد واحد ، بل لابد من

---

(١) انجيل متى الاصحاح الخامس

القلق الخلاق ، والذى هو قسيم الحياة ، مما سنكشف عنه فى الفصل القادم إن شاء الله .

***

وإذا أخذنا بأشهر الأقوال فى أن الهجرة هى الفاصل بين الآيات المكية والمدنية « فالمكى ما نزب قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها ، سواء نزل بمكة أم بالمدينة ، عام الفتح أو عام حجة الوداع ، أو بسفر من الأسفار »[1] - إذا أخذنا بهذا القول فسنلاحظ أن الآيات المكية تهتم بلفت الأنظار وبالتأمل فى المظاهر الطبيعية : السماء والأرض ، الليل والنهار ، الظلام والنور ، الشمس والقمر ، الذكر والأنثى ، وغير ذلك من أشياء متجاورة ومتقابلة ، شرحناها فى فصل « الطبيعة » ، ويراها حوله المسلم والمشرك ، والعربى والعجمى ، ومن هنا غلب على هذه الآيات النداء « يا أيها الناس » كما قال مصعب[2] .

وسنلاحظ أيضا أن الآيات المدنية اهتمت - على الأخص - بالضبط والإرادة ، فبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا ، جعلت الآيات تنادى « الذين آمنوا » وتعلمهم الأحكام ، وتهديهم إلى العدالة والوسطية ، وإلى التشريعات التى تجعل الدين قيما ، أى تعدهم للدور التاريخى ، الذى شرحناه فى فصل التاريخ .

ومما يلفت النظر أن آيات مدنية ، ترد فى سورة مكية ، فتكون ذات طابع مدنى فسورة « الأنعام » سورة مكية ، تدعو إلى التأمل فى المظاهر الطبيعية ، وفى قدرة اللهّ فالق الحب والنوى ومخرج الحى من الميت (الآية / ٩٥) وفالق الاصباح وجاعل الليل سكنا (٩٦) والنجوم هداية (٩٧) وينزل من السماء ماء فيخرج به نبات كل شىء (٩٩). ولكن تأتى فى داخلها آيات مدنية (الآيات ١٥١ ، ١٥٢ . ١٥٣) فتتحدث عن الكيل والميزان ، وتقيم من الظوابط ما يحقق العدالة ، ويهدى إلى الصراط المستقيم . وسورة المطففين « قيل إنها مكية لذكر الأساطير فيها ، وقيل إنها مدنية لأن أهل المدينة كانوا أشد الناس فسادا فى الكيل ، وقيل نزلت بمكة الا قصة التطفيف ، وقال قوم نزلت بين

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ٩/١ .
(٢) الاتقان ١٧/١ .

مكة والمدينة »[1] . وعلى أى حال ، سواء كانت آخر سورة نزلت بمكة كما جاء فى ترتيب الاتقان للسور المكية ، أو نزلت بين مكة والمدينة ، أو كانت من أوائل السور التى نزلت بالمدينة ، فانها تؤذن ببداية مرحلة جديدة ، بداية الضبط والربط ، والدعوة إلى الوسطية والعدالة .

وقد لاحظ القدماء الفروق بين الآيات المكية والمدنية ، وعددوا ذلك فى أشياء كثيرة[2] ، ويهمنا أن نقف بنوع خاص عند قول عائشة رضى الله عنها عن القرآن « انما نزل أول ما نزل منه ، سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ناب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول شىء « لا تشربوا الخمر » ، لقالوا لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل « لا تزنوا » لقالوا : لا ندع الزنا أبدا . لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وانى لجارية ألعب «بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» . وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده »[3] .

***

تدرج محمد ﷺ فى الدعوة ، وكان القرآن يصاحبه فى ذلك التدرج ، فبدأت الآيات الأولى تلفت نظر العربى إلى المظاهر الطبيعية التى حوله ، ودفعته إلى تأمل ذلك الازدواج والتجاور بين الأشياء ، وتوالت الآيات على معنى تذكره فى صور مختلفة ، وهو أن الله خلق الأزواج كلها ، أى خلق الشىء وخلق له ما يقابله .

« الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى »[4] .

« أو لم يروا إلى الأرض . كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم »[5] .

« خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ،

---

(١) الاتقان ١٣/١ .
(٢) الاتقان ١٧/١ .
(٣) البخارى ١٨٥/٦ .
(٤) سورة طه الآية ٥٣ « مكية » .
(٥) الشعراء « مكية » .

وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم »[1] .

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون »[2] .

« والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون »[3] .

« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »[4] .

« ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون »[5] .

ويتعايش الشيئان ويتجاوران وتكتمل منهما اللوحة ، ويقول تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[6] . ويقول الرازى بصدد تفسيره لهذه الآية « بل نقول ها هنا ما هو أعجب منه ، وهو أنه يوجد فى بعض أنواع الورد ما يكون أحد وجهيه فى غاية الحمرة ، والوجه الثاني فى غاية السواد » ، ويقول عن الآية الثالثة فى سورة الرعد « إن الحبة إذا وضعت فى الأرض ، وأثرت فيها نداوة الأرض ، ربت وكبرت ، وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها ، فيخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة فى الهواء ، ويخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة فى أسفل الأرض ، وهذا من العجائب لأن طبيعة تلك الحبة واحدة ، وتأثير الطبائع والأفلاك والكواكب فيها واحدة ، ثم أنه خرج من الجانب الأعلى من تلك الحبة جرم صاعد إلى الهواء ، ومن الجانب الأسفل منه جرم غائص في الأرض ، ومن المحال أن يتولد من الطبيعة الواحدة طبيعتان متضادتان ، فعلمنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم

---

(١) لقمان ١٠ « مكية » .
(٢) يس ٣٦ « مكية » .
(٣) الزخرف ١٢ « مكية » .
(٤) ق ٧ « مكية » .
(٥) الذاريات ٤٩ « مكية » .
(٦) الرعد ٤ .

... وأيضا قد يحصل فى الثمرة الواحدة الطباع المختلفة ، فالأترج قشره حار يابس ، ولحمه حار رطب ، وحماضه بارد يابس ، وبذره حار يابس ، ونوره حار يابس »[1] .

نحن هنا فى قلب الطبيعة العربية ، التى يتجاور فيها الشيئان ، ويتعايشان على الرغم من تباينهما ، ونقترب كثيرا من رمز النخلة ، التى تضرب بجذورها فى الأرض حتى الماء ، وترتفع بأغصانها فى السماء ، حيث يتبخر الماء ، وتلقى بظلالها السود ، فيتجاور الأبيض والأسود ، والظل والحرور .

***

يعلل الرازى لاهتمام القرآن الكريم بضرب الأمثال فيقول : « وذلك لأن المعانى العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم ، فاذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ، ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم »[2] .

ومن هذا المفهوم لوظيفة الأمثال كما ذكرها الرازى ، أحاول أن أكشف عن استخدام القرآن الكريم للمظاهر الطبيعية ، لتقريب المعنى من الحس ، ولتحقيق التأثير على العرب ، معارضا بكل شدة ذلك المنهج المادى ، الذى يجعل الدين نتاج فترة تاريخية معينة ، ويكون انعكاسا للوقائع المادية ، شـأنه شـأن « البنى الفوقية » بعامة ، مؤكدا بكل شدة أيضا أن القرآن كتاب سماوى ، ولكن الذي أنزله حكيم عليم بأنه لم ينزل فى فراغ ، وإنما بين بشر ، لهم طرق تعبيرهم الخاصة ، ولهم قدراتهم البشرية المحدودة ، فهو يحاول أن يغيرهم ، وأن يثير مشاعرهم ، وأن يحرك وجدانهم من خلال تلك الطرائق فى التعبير البشرى . حقا إن الإسلام دين عالمى ، ولكنه نزل أول ما نزل بين العرب ، فهم مادة الإسلام كما يقول عمر بن الخطاب[3] ، وهم القاعدة الأولى التى رباها الرسولﷺ ، وجعلها منطلقا لنشر

---

(١) تفسير الرازي ١٨٥/٥ . حقا ان سورة الرعد مدنية ، ولكن يبقى أن ما قاله الرازى بصدد هاتين الآيتين المدنيتين ، يمكن أن يقوله بصدد آية من تلك الآيات المكية التى ذكرناها سابقا ، فيبقى الاستشهاد قائما لا يتخلف .

(٢) تفسير الرازى ٢٤٢/٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ١٩٢/٤ .

الدين وتحقيق عالميته ، ومن هنا اتخذ القرآن الكريم طرائق العرب فى الفصاحة والبلاغة وضرب الأمثال ، من المظاهر الطبيعية التى حولهم ، ومن الواقع الحسى الذى يشاهدونه ، لكى يكون التأثير أعمق ، والفهم أوضح .

وهذه الناحية هى التى تفسر سر تعلق العرب به ، فمنهم من أسلم لدى سماعه كعمر بن الخطـاب وجبير بن مطعوم . ومنهم من اعترف - على الرغم من عناده - « إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق » كما قال الوليد بن المغيرة[1] . فقد كان يلمس نفوسهم ويكشف لغتهم ، ويعبر عن خصائصها ، وكثيرا ما يذكر القرآن أنه نزل بلسان عربى مبين ، ويصرح بأنه لو نزل على أعجمى لما فهموه ولردوه « ولو جعلناه قرءانا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى »[2] . ويعلق الباقلانى على هذه الآية فيقول : « لو كان أعجميا لكانوا يحتجون فى رده ، بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم ، وكانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه ، وبأنه لا يبين لهم وجه الإعجاز فيه ، لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم ، أو بغير ذلك من الأمور . وأنه إذا تحداهم إلى ما هو فى لسانهم وشأنهم ، فعجزوا عنه ، وجبت الحجة عليهم به »[3] .

ونقرأ السور الأولي فنحس أننا فى قلب الجزيرة العربية ، بكل مظاهرها الطبيعية ، جبالها ووديانها ومائها ونخيلها وزيتونها وظلها وشمسها وحرها وضحاها وليلها ، ولنقف قليلا عند بعض الآيات المكية :

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السـماء ماء طهورا . لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا »[4] . « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من

---

(١) الاتقان ١١٦/١ .
(٢) فصلت ٤٤ « مكية » .
(٣) اعجاز القرآن ١٧/١ .
(٤) الفرقان ٤٩/٤٥ « مكية » .

أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون »[1] . « وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم »[2] . « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس »[3] . « فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق »[4] . « والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب »[5] . « والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى »[6] . « والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى »[7] . « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود »[8] .

وغلب على الآيات الأولى ذكر النار والجنة كما لاحظت عائشة رضى الله عنها ، وقد لجأ القرآن الكريم إلى ضرب الأمثال من واقع الطبيعة العربية ، لكى يقرب إلى أذهان العرب صورة النار والجنة ، فالنار تشبه الطبيعة العربية فى وجهها الحار العنيف ، وطعام أهلها الغسلين والزقوم والضريع ، وشرابها من عين آنية : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم »[9] . « ثم إنكم أيها الضاون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم »[10] « فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين »[11] . « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغنى من

---

(١) الانعام ٩٩ « مكية » .
(٢) النازعات ٣٣/٢٩ « مكية » .
(٣) التكوير ١٧ و ١٨ « مكية » .
(٤) الانشقاق ١٩/١٧ « مكية » .
(٥) الطارق ٣/١ « مكية » .
(٦) الاعلى ٤ و ٥ « مكيتان » .
(٧) الليل ١ و ٢ « مكيتان » .
(٨) فاطر ٢٧ « مكية » .
(٩) الواقعة ٤٤/٤١ « مكية » .
(١٠) الواقعة ٥٥/٥١ « مكية » .
(١١) الحاقة ٣٥و٣٦ « مكيتان » .

اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر . كإنه جمالة صفر »[1] . « لا يذوقون فيها بردا ولاشـــرابا . الا حميما وغســـاقا »[2] « نار الله الموقدة . التى تطلع عـــلى الأفئدة »[3] « سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب »[4] .

أما الجنة فهى صورة للوجه المقابل من الطبيعة العربية ، حين تنفرج القيلولة ، ويأتى المساء ، ويرسل نسماته المنعشة ، أو حين يلتقى الضال بظل ظليل ، أو حين يأوى إلى بيته وزوجه وبنيه وسرره المرفوعة وغارقه المصفوفة « وأصحاب اليمين ما أصـــحاب اليمين . فى سدر مخضـــود . وطلح منضـــود . وظـــل ممدود . ومـــاء مسكوب . وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهن انشاء ، فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا »[5] . « ان المتقين فى ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون »[6] . إن القرآن الكريم ، لكى يرغب فى الجنة ، يثير ذلك الجانب من الطبيعة العربية ، وهو الجانب الذى يحلم به العربى أيام الشدة والحر ، ومن هنا تدرك السر فى الالحاح على أنها جنة ذات ظل ممدود ، فقد بلغت الآيات التى تفيد هذا العنى ستا[7] ، ويقول الرازى عن تلك النعمة « أطيب الأحوال هو الظل ، ولذلك وصف الجنة به فقال « وظل ممدود » ، وإذا ثبت هذا فنقول : إنه سبحانه بين أنه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة »[8] .

بل إن بعض السور القصار ، تلفت فى مجموعها نظر العربى إلى المتقابلات التى تحيط به ، فسورة الشمس (مكية) توجهه إلى المتقابلات الآتية (شمس وقمر - نهار وليل - سماء وأرض - فجور وتقوى - ثمود والرسول) وسورة الليل (مكية) توجهه إلى تلك المتقابلات (الليل والنهار - الذكر والأنثى - العطاء

---

(١) المرسلات ٣٣/٢٩ « مكية » .
(٢) النبأ ٢٥ و ٢٦ « مكيتان » .
(٣) الهمزة ٦ و ٧ « مكيتان » .
(٤) المسد ٣ و ٤ « مكيتان » .
(٥) الواقعة ٣٧/٢٧ « مكية » .
(٦) المرسلات ٤١ و ٤٢ « مكيتان » .
(٧) منها ثلاث مدنيات . أنظر : « المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم » « ظلل » .
(٨) تفسير الرازى ٣٧٧/٦ . ذكر الدكتور دراز فى كتابه « دستور الأخلاق فى القرآن الكريم » ص ٣٧٩ (أنها جنة ذات مناخ معتدل ، لا يفســده حر شمس ، ولا زمهرير بـــرد « لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا » ...) .

والبخل - اليسر والعسر - الأشقى والأتقى) . أما سورة الغاشية (مكية) ، فهى تذكر الشيء وما يقابله ، وتصف النار بصفات يحسها العربى ويكتوى بها ، وتصف الجنة بصفات يأملها العربى ويهرب إليها من واقعه الخشن « هل أتاك حديث الغاشية . وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع[1] . لا يسمن ولا يغنى من جوع . وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة . أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت » .

ومن هذه المنطق نفهم لماذا يلح القرآن على نعمتين بنوع خاص ، وهما نعمتا الأمن والطعام [2] . « وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا . وارزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله واليوم الآخر »[3] « فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »[4] « أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم »[5] « وطور سينين وهذا البلد الأمين »[6] » وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »[7] « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات »[8] .

ترجع أهمية هاتين النعمتين إلى واقع الجزيرة العربية ، فهى بلد يغلب عليها

---

(١) نبت بالحجاز وهو سم إذا يبس .

(٢) يتحدث الدكتور دراز (ص ٣٧٠) عن المتع الروحية فى الجنة ، ويذكر منها « الأمن من الخوف » ، وان هذه المتعة قد وردت فى عشرين آية من القرآن ، اثنتا عشرة آية مكية وثمانى آيات مدنيات » .

(٣) البقرة ١٢٦ .

(٤) قريش ٣ و ٤ .

(٥) العنكبوت ٦٧ .

(٦) التين ٢ و ٣ .

(٧) النحل ١١٢ .

(٨) البقرة ١٥٥ .

الجدب وتكثر فيها المجاعات ، ومن هنا تظهر أهمية « الطعام » وما يدور حوله من أخلاق كالكرم . وهى بلد تكثر فيها الغارات وأيام العرب والنهب والسلب ، ومن هنا تظهر أهمية « الأمن » وما يدور حوله من أخلاق كالشجاعة .

***

حقا ، إن القرآن يصور الشيئيين المتجاورين فى الطبيعة العربية : الأرض الميتة والأرض الحية ، الأرض الجرز والأرض المنبتة ، الظلام والنور ، الظل والحرور . ولكنه لا يكتفى بالتصوير الجامد ، بل يتخذه مثالا ليحصل الفهم على حد تعبير الرازى ، فغير المسلم هو مثال للصحراء فى صورتها القاسية : حجارة وحديد ، وظلمات وحرور ، وأرض ميتة ، وقسوة وصمت « قل كونوا حجارة أو حديدا »[1] « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة »[2] « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا »[3] « وما أنت بمسمع من فى القبور »[4] . أما المسلم فهو صورة للجانب الآخر من الصحراء ، للنور ، وللأرض الحية المخصبة « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار »[5] « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم »[6] « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة لله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل »[7] « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه »[8] .

ان الطبيعة تثير أمام العربى احساسين : احساس الخوف من جانب ، واحساس

---

(١) الاسراء ٥٠ .
(٢) البقرة ٧٤ .
(٣) البقرة ٢٦٤ .
(٤) فاطر ٢٢ .
(٥) الفتح ٢٩ .
(٦) الحديد ١٢ .
(٧) البقرة ٢٦٥ .
(٨) الزمر ٢٢ .

الأمن من الجانب الآخر ، فالخوف من هذا الجانب العاصف المدمر ، ثم الاستئناس بهذا الجانب الخير النير .

إن الجزيرة العربية بطبيعتها تدعو إلى الخوف ، صحارى شاسعة يتوه فيها المرء ، جبال كالجن ، ليل يهجم وكأنه خطاطيف حجن على حد تشبيه النابغة ، ورياح لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وسيول تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر .

وقد حرك القرآن الكريم عاطفة الخوف الكامنة فى نفوس العرب ، إن هذه المظاهر الطبيعية المخيفة ، يستطيع الله أن يغيرها ، وحالة الجنة التى يصيبها اعصار فيدمرها ، وردت فى سور كثيرة فى القرآن ، منها سورة النحل والكهف . وقد اكثرت السور المكية من الأمم الخالية كما قال مصعب[1] ، وقد أهلك الله هذه الأمم - وبعضها كان يعيش داخل الجزيرة العربية - بتحريك المظاهر الطبيعية ، فقوم نوح أغرقوا ، وقوم عاد أخذهم رجس وغضب ، وثمود أخذتهم الرجفة ، وقوم لوط أخذهم المطر ، ومدين أخذتهم الرجفة[2] . إن الله قدير على أن يحرك هذه المظاهر ، وأن يهدد بها المشركين ، قدير على أن يرسل عليهم كسفا من السماء وصواعق وزلازل وبراكين . « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا ، فمن يأتيكم بماء معين »[3] « أفرأيتم ما تحرثون . أنتم وتزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء لجعلناه أجاجا فلولا تشكرون »[4] .

والقرآن الكريم حين يحرك عاطفة الخوف . يريد - ضمنا - أن يدفع المسلم إلى جانب الأمن والحماية ، وهذا الجانب يجده فى العقيدة التى تحفظه وتؤنسه « قال سعيد بن المسيب : من صلى بأرض فلاة ، صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك ، فإن أذن وأقام صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة »[5] ، وتتوارد الآيات الكثيرة

(١) الاتقان ١٧/١ .
(٢) انظر سورة الأعراف ٦٤ - ٩١ .
(٣) الملك ٣٠ .
(٤) الواقعة ٦٣ - ٧٠ .
(٥) الاحياء ٢٦١/١ .

التى تدل على حماية الله لعباده المؤمنين ، وطرد الخوف عنهم ، ودفع الأمن إلى نفوسهم « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله »[1] « إن كل نفس لما عليها حافظ »[2] « أعوذ برب الفلق . من شر من حلق . ومن شر غاسق إذا وقب »[3] ويستفتح المسلم القرآن ويقول « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فيطرد الجانب المرعب والقبيح والشرير . ثم يثنى فيقول « بسم الله الرحمن الرحيم » فيجلب جانب الحماية والأمن والخير . ومن ثم وصف القرآن بصفات تشير إلى جانب الأمن والطمأنينة[4] ، فهو حياة القلوب ، وهو شفاء ورحمة ، وهو نور « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها »[5] .

وهنا نفهم الحكمة فى أن الآيات التى تتحدث عن حياة الأرض ، كثيرا ما تتحدث عن القرآن الذى هو حياة القلوب « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون »[6] .

***

والقرآن يلفت النظر إلى الجانب البهيج فى الطبيعة ، وتتوارد الآيات وكأننا فى مهرجان ، تأخذ الأرض بزينتها وزخرفها ، والسماء تملأ العين بكواكبها ونورها ، والماء ينزل على الأرض فتهتز وتنبت كل زوج بهيج .

إن القرآن هنا يرضى المتعة الحسية عند العرب ، فهو لا يلجأ إلى الغموض أو

---

(١) الرعد ١١ .
(٢) الطارق .
(٣) الفلق ١ - ٣ .
(٤) ذكر فى الاتقان (١/ ٥٠) ان القرآن سمى بخمسة وخمسين اسما منها : الكتاب والمبين والفرقان والنور وهدى ورحمة وشفاء ومهيمن وصراط مستقيم وروح ، لانه تحيا به القلوب والأنفس .
(٥) الانعام ١٢٢ .
(٦) الحديد ١٦ و ١٧ .

التجريدية ، وهو لا يصور جانب الكآبة والاحباط والتقوقع داخل النفس ، إنه يمتع الحواس ، ويملؤها بالزينة التى حولها ، هو يرضى حاسة الأذن عن طريق الموسيقى وايقاع الفواصل ، مما سنشرحه بالتفصيل فى فصل الأدب ، وهو هنا يرضى حاسة البصر ، فيعرض أمامها الزينة والبهجة والنضارة والزروع والنبات والنخيل والأشجار المخضرة ، وحب الحصيد ، والرمان .

ويتناثر هذا فى القرآن الكريم ، وخلال سور كثيرة وخاصة السور المكية ، مثل : الأنعام (آية / ٩٩) ، والحجر (آية / ١٦) ، وق (آية / ١١) ويونس (آية / ٢٤) ، والصافات (آية / ٦) والكهف (آية / ٣١) والنمل (آية / ٦٠) ، والنبأ (آية / ١٥) والنحل (آية / ١٠) ، ويس (آية / ٣٥) ، والشعراء (آية / ٧) ولقمان (آية / ١٠) .

فالسماء جميلة مزدانة للناظرين « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين »[١] « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج »[٢] ، والكواكب تزينها والمصابيح تنيرها « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب »[٣] « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح »[٤] .

أما الأرض فان الماء ينزل عليها ، فيكسوها حلة بهيجة من الزرع المخضر والحدائق البهيجة ، والزخرف والزينة والرزق الحسن ، وضروب النبات من كل زوج بهيج ، أو كريم . « وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه »[٥] « والأرض مددناها وألقيناها فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد واحيينا به بلدة

---

(١) ١٦ / الحجر .
(٢) ٦ / ق .
(٣) ٦ / الصافات - مكية .
(٤) ٥ / الملك - مكية .
(٥) ٩٩ / الانعام - مكية .

ميتا كذلك الخروج »[1] « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت »[2] « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة . ما كان لكم أن تنبتوا شجرها »[3] « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا »[4] « أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم »[5] .

انه جو من الزينة والبهجة ، يتناثر بين صفحات القرآن الكريم ، وقد يلفت لأول وهلة نظر الغريب ، فالألفة لا تحجب عنه هذا الجو ، يقول جوته[6] فى ديوانه الشرقى :

« رأيت بدهشـــــــة وابتهـــاج
ريشة طاووس[7] بين صـــــفحات القرآن
مرحبا بك فى هـــــــذا المكان المقدس
أغـــــلى كنز بين بـــــدائع الأرض
ان عظمة الله التى تتجلى فى أصغر الكائنات
نتعلمها منك ، كما نتعلمها من نجوم السموات
ونعرف أنه ، وهو الذى يشمل الأكوان بنظرته
قـــد طبع هنـــا آثـــــار عينيه
وهكذا زين هـــذه الريشـــــة الخفيفة
بحيث لم يفلح الملوك فى يوم من الأيـــام
فى محاكاة هـــذا الطـــائر الفنـــان

---

(١) ١١/٧ ق - مكية .
(٢) ٢٤ / يونس - مكية .
(٣) ٦٠ / النمل - مكية .
(٤) ١٤ - ١٥ / النبأ - مكية .
(٥) الشعراء - مكية .
(٦) جوهان فلفجانج فون جيته ، ولد سنة ١٧٤٩ ، أعظم شعراء الألمان توفى سنة ١٨٣٢ م .
(٧) ربما لو كانت الترجمة « ريشة هدهد » ، لكانت أفضل فواضح أن جيته هنا يشير إلى سورة النمل ، التى وردت فيها قصة الهدهد مع الملك سليمان ، فضلا عن أن كلمة « طاووس » تثير الزهو والخيلاء ، وهو ما يتنافى مع بقية النص .

ابتهجي بتواضـــــع بهذا المجد العظيم
تكوني جـــــديرة بالمكان المقـــــدس[1] .

***

تقرأ القرآن فتحس انك إزاء مستويين : المستوى الذى يعكس الصورة الخارجية للصحراء ، ويتحدث عن مظاهرها العنيفة ، ثم المستوي الآخر للصحراء بشفافيتها ، وذلك هو الجانب الالهى والروحى فى القرآن وهو المعبر عن الجزء المتجاوز للصحراء ، ان الصحراء ليست هى الحجارة والكتل والجبل فحسب ، ان هذه الجبال يمكن أن تخشع ، ويمكن أن يتجلى الله على الجبال[2] ، وأن ينادى أنبياءه عند النار المشتعلة فى الوادى المقدس[3] ، ويمكن للرعد أن يسبح بحمد الله وأن يسجد له من فى السموات والأرض[4] . وان الأمر ليس أمر زينة وبهجة ، ليست مجرد سماء تزدان بكواكبها ، وليست مجرد أرض تهتز بكل زوج بهيج ، ولكن كل هذا وسيلة إلى جانب آخر .

وهذا الجانب فى القرآن هو الذى أحس به المؤمنون ، فوجلت قلوبهم بذكر الله ، واطمأنت وازدادوا إيمانا ، وفاضت أعينهم بالدمع مما عرفوا من الحق[5] .

وهذا الجانب الالهي لم يستطع أن يكتشفه المشركون ، فقد ضرب بينهم وبينه

---

(١) الفراشة والنور ص ١٥ .

(٢) « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » الاعراف ١٤٣ .

(٣) « اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى ، إنى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى » طه ١٠ - ١٢ .

(٤) « ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال .... ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والاصال » الرعد ١٣ و ١٥ .

(٥) « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب » الرعد ٢٨ « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » الانفال ٢ « واذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » المائدة ٨٣ .

بحجاب وجعلت على قلوبهم اكنة وفى آذانهم وقر[1] ، وغاية ما استطاعوا أن يدركوا هو أنه سحر أو شعر أو أساطير ، وهم قالوا ذلك من منطلق احساسهم بأنه ليس من الأمور المألوفة ، وبأن له تأثيرا على القلوب ، وله حلاوة ، وعليه طلاوة ، وأنه يستطيع « أن يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته » كما قال الوليد بن المغيرة[2] . انهم يقرون - ضمنا - بانه يتجاوز الأمور المألوفة ، ولم تصل مداركهم الا إلى الشـــعر ، وغاب عنهم هذا الجانب الالهى ، الذى يمثل الجزء المتجاوز المظهر الخارجى من الصحراء . وكان المشرك يحس بتأثيره ويعترف فى دخيلة نفسه بذلك و، ولكنه كان يقاوم ، كان أشد قسوة من الحجارة لأن من الحجارة ما يلين ، وأشد بوارا من الأرض الميتة لأنها قد تحيا ، كان حين يسمعه يلغى فيه ، أو يصفق ، أو يصدر مكاء ، أو ينصرف ، كان يقاوم حتى لا يتأثر ، وانه ليحمل فى مقاومته الدليل على قوته وتسلله إلى القلوب .

حاول مسيلمة أن يقلد القرآن الكريم فى مثل قوله « ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى . أخرج منها نسمة تسعى . من بين صفاق وحشى » « والليل الأطخم . والذئب الأدلم . والجـزع الأزلم . ما تنهكت أسيد من محرم » « ضـفدع بنت ضفدعين . نقى ما تنقين . أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين . لا الشارب تمنعين . ولا الماء تكدرين » .

وحـاول غيره أمثال ذلك ، ولكنهم جميعا فشـلوا ، لا لنقص فى البلاغة أو فى القدرات الذهنية ، ولكن لأنهم كان ينقصهم ذلك الجانب الإلهى ، الذى تنبه له أبو بكر ، وقال معلقا على كلام مسيلمة « وبلكم أن هذا لم يخرج عن آل : أى ربوبية »[3] .

***

رأينا أن القـرآن الكريم يتخذ من الوجه القاسى للطبيعة العربية ، مثالا

---

(١) « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون » فصلت ٥ .

(٢) السيرة ١/ ٢٧٠ « الحلبى » .

(٣) اعجاز القرآن ص ٩ .

للكافر ، ويتخذ من الوجه الآخر البشوش مثالا للمؤمن ، ورأينا أنه لا يكتفى بمجرد التصوير ، بل ليثير فى نفوس المستمعين حب الإيمان وكراهية الكفر ، فهما لا يستويان ، كما أن الوجه الطالح لا يتساوى مع الوجه الخير . قال تعالى « وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء والأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور »[1] . ومن هنا أكثر القرآن الكريم من تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة ، ويعلق الرازى على ذلك بقوله « فأما تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة ، فهو فى كتاب الله تعالى كثير . والوجه فيه أن النور قد بلغ النهاية فى كونه هاديا إلى المحجة وإلى طريق المنفعة وإزالة الحيرة ، وهذا حال الايمان فى باب الدين ، فيه ما هو النهاية فى ازالة الحيرة ووجدان المنفعة فى باب الدين بما هو الغاية فى باب الدنيا »[2] .

والقرآن حين يميز جانبا لا ينكر وجود الجانب المفضول ، فهما متجاوران ويتعايشان ، وإن كانا متمايزين ومتفاضلين ، وهنا سر واقعيته وحيويته ، إنه لا ينظر من جانب واحد ، بل ينظر بالعينين . والتطارد بين الشيئن لا يصل إلى حد إلغاء أحدهما ، بل هو تطارد يدور فى جو من التسامح والواقعية . وهذا هو ما يميز الحركة العربية الإسلامية ، عن الجدلية الماركسية كما سنذكر في فصل « الحكمة الساكنة » ، حين الحديث عن الوسطية المعاصرة .

ان الحركة العربية تنشأ أساسا من التجاورية بين الشيئين ، ولا تصل إلى العنف ، ونفى أحدهما للآخر ، وان « الدفع » بين الخير والشر يدور فى جو من تلك المنطقة التى تعرف الحكمة والتأمل والهدوء ، وتصبر على الأشياء حتى تستقر . وتؤمن بوجود شىء آخر يتدخل مع العقل وتلتمس منه التوفيق والهداية ، ولا تمانع من تدخل خارجى فى نهاية الأمر ، يقلب كل الحسابات والاعتبارات ، ويترك المنافذ مفتوحة أمام الاحتمالات .

فليست السببية العقلية الحادة هى التى تتحكم ، فهناك عنصر المفاجأة الذى كان يحسه العربى وهو فى صحرائه ، قد يشرف على الموت - كما سبق وأن ذكر ابن

---

(١) فاطر ١٩ - ٢٢ .
(٢) التفسير ١/٢٠٥ .

بطوطة - وفجأة تسوق له العناية الإلهية مخرجا . ان المنطق العربى ليس عقليا محضا يجمد التجربة خلال أشكال ذهنية كما يفعل ارسطو ، وليس هو يربط ماهية الإنسان بالتفكير ويجعله سابقا على الوجود كما فى الكوجيتو الديكارتى . انه يضيف إلى الحسابات الذهنية عنصر الاحتمال والتوقع .

ومن هنا أخذ القرآن الكريم يحرك هذا التراث العربى الضارب بجذوره فى طبيعة الأرض والصحراء ، وينمى صفة التوقع ، ويضبطها ضبطا إسلاميا ، حتى قصص أنبياء اليهود والنصارى قد صاغها داخل اظار التوقع والعناية الإلهية ، فموسى تلقيه أمه فى النيل ويلتقطه آل فرعون ، وهم يطمعون أن يكون لهم قرة عين ، ولكنهم لا يشعرون أن الغيب يخبئه ليكون لهم عدوا وحزنا ، وحين يهرب موسى من مصر ويضرب فى صحراء سيناء ، ويصيبه الجوع والظمأ ، ويلجأ إلى الظل ينتظر العناية الالهية ، التى ساقت له فتاة تبشره بالأمن والطعام . ومريم حين أصابها المخاض تلجأ إلى جذع النخلة وهى تتمنى الموت ولكن يناديها من تحتها وليدها الصغير ، يبشرها بالطعام وبرعاية الله لها .

إن قصة موسى مع الخضر ، كما وردت فى سورة الكهف ، يمكن أن تكون تصويرا للعلاقة بين هذين الاتجاهين : الاتجاه الذى يقيس الأمور ظاهريا ، وينطق بشرى ، يعتمد الأسباب والعلل والاستنتاجات الذهنية ، وسنذكر فى الفصل القادم أن النزعة اليهودية - كما صورتها التوراة - تميل إلى قياس الأبعاد وتحديد الأمكنة ووصف الأشياء وغير ذلك من قدرات ذهنية ظاهرية . أما الاتجاه الآخر فهو يهتك الظاهر ، ويعانق الحكمة الإلهية الكلية ويسمح للتوقعات أن تتدخل ، فتغير كل الحسابات المألوفة . ويذكرون فى التفاسير أن موسى سئل « فأى الناس أعلم ؟ قال : أنا . فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله . فأوحى إليه بل أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين وهو الخضر » . فالتقى به موسى « فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر فى الماء . فقال الخضر : ما ينقص علمى وعلمك من علم الله إلا مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر »[1] .

فهذا الاتجاه الأخير والذى يمثله الخضر ، يصدر من منطق التواضع والايمان بقوة

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى ٢/٤٩٠ .

مطلقة لها حكمتها التى تختلف عن المنطق الظاهرى . ومن هنا وصف القرآن هذا العبد المتواضع بقوله « آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما »[1] ، وقد فسرت الرحمة بأنها الوحى والنبوة ، وفسر العلم اللدنى بأنه الاخبار عن الغيوب[2]. إن هذا يعنى أن هذا المنطق لا يصدر عن قوة عقلية فحسب ، بل لابد من إضافة قوة أخرى لنسميها الوحى أو النبوة مثلا .

وقد انتصرت القصة القرآنية لهذا الاتجاه الأخير ، وهو يمثل الاتجاه العربى ، الذى يترك المنافذ مفتوحة أمام توقعات القوة المطلقة ، التى تتدخل فى حساباته المحدودة والخاصة . وروح هذا الاستنتاج يدعم الرأى القائل أن شعيب النبى العربى هو معلم موسى وأنهم يسمونه « يثرون »[3] وأنه هو الخضر « للمشابهة بين لفظ يثرون وخثرون وخضر »[4] .

والقرآن الكريم – وخاصة فى آياته المدنية – حاول أن يعطى لهذا الاتجاه مضمونا ايجابيا ، وان يضبطع ضبطا اسلاميا ، ومن هنا كان ما يسمى «التوكل» ، وهو يعنى الاجتهاد فى حدود الطاقة البشرية ، ثم ترك المنافذ مفتوحة أمام الاحتمالات الأخيرة . وهذا يحمى المسلم من اليأس والغرور ويزوده بالأمل ، فربما تضيق الأمور فلا يقنط من رحمة الله فإن مع العسر يسر . وربما تقبل عليه الحياة فلا يدفعه ذلك إلى التكبر والغرور ، فإن الله قادر على أن يخسف به الأرض كما فعل مع قارون . كان أهل الظاهر يخدعون بحظ قارون ويتمنون أن يكون لهم مثله ، أما أهل العلم ممن لا يقفون عند السطح فقد أدركوا الحقيقة وتذرعوا بالصبر ، وقالوا للمخدوعين « ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون »[5] .

***

(١) الكهف ٦٥ .

(٢) الكشاف ٢/٤٩٢ .

(٣) « وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان » سفر الخروج ٣/١ .

(٤) الثقافة العربية أسبق ص ٨٤ .

(٥) القصص ٨٠ .

إن المسلم ينفصل عن الطبيعة ولا يذوب فيها على الرغم من أنه لا يعاديها ، فهو قد يخشى تقلباتها ولا يأمن مكرها ، ويجد فيها جانب انذار يحذره الذى حدث مع عاد وأصحاب الأيكة والرس وثمود . وقد ينظر إلى جانبها الآخر ، فيجد فيها واحة من نخيل وأعناب وظلا ممدودا وماء باردا ، ولكن لا يطلب منه أن يقف عند هذا ويتخذه مثالا ويرى أن محاكاة الطبيعة صفة الكمال ، وانما المطلوب أن يذكره هذا بصورة الجنة ، التى أعدها الله للمؤمنين فى الدار الباقية .

إن الطبيعة ليست مقصودة لذاتها ، فهى إلى ما سبق متغيرة ومتقلبة ، وحق المسلم أن يتجاوزها ليبحث عن جوهر ثابت لا يتغير ومنفصل عنا ، وهذا الجوهر فوق الكوكب والقمر والشمس ، انه أكبر من كل شىء . وإذا اكتشف فيها المسلم لغة فهى لغة التسبيح لله ، إن الموقف هنا هو موقف التأمل الدينى ، وليس موقف الفنان الحر .

فنحن إذن إزاء مجموعة من التمايزات والاستقلال ، انسان يستقل عن الطبيعة ولا يتوحد بها ، ويتأملها ليتجاوزها ، وجوهر ثابت مستقل عن كل ما هو متغير ، ألم نقل بادىء ذى بدء ان الأشياء على الرغم من أنها تتجاور فانها تتمايز .

حقا إن الله يخرج الحى من الميت . ويولج الليل فى النهار ، أو يسلخه منه ، أو يكوره عليه ، وحقا إن الحجر قد تنبجس منه بأذن الله اثنتا عشرة عينا ، ولكن يبقى كل ذلك متمايزا ومستقلا ، فإن الليل إذا يغشى يهجم بظلمات وبشر نستعيذ بالله منه « ومن شر غاسق إذا وقب » . أما النهار إذا تجلى والصبح إذا تنفس فإنه يبشر بانجلاء الغمة وبظهور الفلق . ان الشيئين - على الرغم من تجاورهما - يظلان متمايزين ، لا اختلاط ولا تداخل ولا تركيب ، كالخيط الأبيض الذى يتبين عن الخيط الأسود ، وقد سبق أن أشرنا إلى آيات تصل إلى حد الإعجاز فى تعبيرها الدقيق والموحى ، مثل « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج » « وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » « وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا » .

***

وقد اهتم القرآن الكريم كثيرا بتوضيح الانحرافات ، فبين أول سورة وآخر سورة نزلت بالمدينة نبه إلى صفة النفاق ، باعتبارها انحرافا يسهل الوقوع فيه ، نظرا الى أن لدى العربى استعدادا لكى يعيش الجانبين ، إن هذا الاستعداد فى صورته الصحية يعنى أن يعيش العربى الجانبين فى صدق وبدافع من فطرته وحبا للتنقل ، وهو ينتج فى تلك الحالة التنوع والتكامل وتعدد النظرة ، وإذا بنا نجد فى الجانب الفنى والشعورى تنقلا من غرض إلى غرض دفعا للملالة والسأم ، وإذا بنا نجد فى الجانب الفكرى تعددا للآراء وموازنة بينها .

ولكن قد يحدث الانحراف ، وإذا بالعربى - تحت ضغط الظروف المستبدة - يعيش حالة مزيفة ، انه يصبح ضد نفسه ، ويحبس حركتها الحرة فى التنقل من حالة إلى حالة ، ويوقف تيارها الداخلى ، كمن يعترض سطح البحر بخشبة توقف تتابعه ، إنه قد يسىء إلى التيار فيعرقله ، أو يودى بالخشبة فيحطمها ، والخسارة فى كلتا الحالتين ترجع على النفس فتحرمها من التوازن الصحى . ولهذا كثيرا ما وصف القرآن المنافقين بالمرض النفسى ، الذى يصيب صاحبه بالجمود ويحرمه من الحركة الحية ، ويصيبه بالخواء والزيف والخداع « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة »[1] « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا »[2] « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا »[3] .

اهتمت السور المدنية بهذه الصفة اهتماما لا مثيل له بصفات أخر . فقد روت مادة « نفق » فى سبع وثلاثين آية كلها مدنية ، بله الآيات التى تحدثت عن النفاق ، ودارت حوله دون أن تصرح بهذه المادة . وقد وضح هذا الاهتمام منذ أول سورة مدنية ، فحين نزلت سورة البقرة ، أخذت تحدد موقف الناس من الدين . فتحدثت عن المؤمنين فى أربع آيات ، وعن الكافرين فى آيتين ، وعن المنافقين فى ثلاث عشرة آية كما ذكر مجاهد « نعى عليهم فيما مكرهم وخبثهم وسفههم .

---

(١) المنافقون ٤ « مدنية » .
(٢) النساء ١٤٢ « مدنية » .
(٣) البقرة ١٠ « مدنية » .

واستجهلهم . واستهزأ بهم . وتهكم بفعلهم وسجل طغيانهم وعمههم ودعاهم صما بكما عميا وضرب لهم الأمثال الشنيعة »[1] .

وقد ربطت هذه السورة النفاق بالطبيعة المزيفة ، فإذا كان العربى يرى فى حياته النور والظلام . الغيث والقحط ، الزرع والقفر . وإذا كان القرآن يضرب المثل من واقع البيئة الصحراوية فيمثل المؤمن بالنور والغيث والزرع ، ويمثل الكافر بالظلام والحر والحجارة - فإنه أيضا يمثل للمنافق من واقع تلك البيئة ، تمثيلا يتفق ونفسيته المريضة المزيفة . فالنور الذى أرادوا الاستبصار به نور زائف وخير منه الظلام . لأنه يضيف الحيرة والتخبط . والمطر الذى توقعوه يحمل الصواعق التى تصك الأذن ، والبروق التى تخطف الأبصار ، وخير منه الجدب ، لأنه يحمل فى طياته العذاب والمتاعب . « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير »[2] .

فهو هنا يربط النفاق بالطبيعة الزائفة ، وهى طبيعة خادعة يحسها العربى حين يضرب فى الصحراء بحثا عن ملجأ ، فيرى السراب فيحسبه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ويسمع الرعد ويرى البرق يحسبه غيثا فإذا به صواعق وأنوار تخطف الأبصار . وهكذا حال المنافق طبيعة خادعة لا تقدم شيئا : نور ولا نور ، ماء ولا ماء ، غيث ولا غيث ، ومن هنا فان الله يعاقبهم من جنس أعمالهم ويسخر منهم يوم القيامة ، إنهم يظنون أنهم يحسنون صنعا ، ولكنهم واهمون ومزيفون ، والله أدرى بأعماق نفوسهم « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا : بلى . ولكنكم

---

(١) تفسير النسفى ١٦/١ .

(٢) البقرة ١٧ - ٢٠ « مدنية » .

فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور »[1] .

إن القرآن الكريم يتحدث عن النفاق كطبيعة منحرفة وسلوك مريض ، وهو يشخص هذا المرض ويحلله ويتحدث عن مضاعفاته ونتائجه . وقصده من ذلك التحذير منه ، لسهولة وقوع العربى فيه أولا ، وللنتائج الخطيرة التى تترتب عليه ثانيا ، فهى نتائج تصيب العربى فى وجوده الذى يرتبط بالصدق والحرية والتجدد ، فيتحول إلى زيف وجمود وهراء .

يشخص القرآن أحوال هذا المرض الجسدية ، فهم فى حالة من الخوف تدور أعينهم « كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير »[2] وهم حسنو المظهر بطريقة مبالغ فيها ، حتى يغطوا على الداخل الذي هو خواء وجمود كالخشب المسندة علي حد ما ورد في سورة « المنافقون » .

أما الداخل فقد اهتم القرآن بتعريته وحلله تحليلا نفسيا يرتد بالمرض إلى جذوره العميقة ، فرأى أنه يرتد إلى صفتين هما : الجبن والبخل ، « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون »[3] « لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون »[4] « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون »[5] .

وهو بوقوعه على هاتين الصفتين « البخل والجبن » . يرتد إلى تراث ضخم قد شكل النفسية العربية ، فقد عرفنا فى فصل « الطبيعة » مدى ما تثيره تلك الطبيعة من رهبة وخوف ، وقرأنا ليل النابغة الذى يهجم على النفوس فيصيبها

---

(١) الحديد ١٣ - ١٤ « مدنيتان » .
(٢) الأحزاب ١٩ « مدنية » .
(٣) التوبة ٧٥ - ١٧ « مدنية » .
(٤) التوبة ٥٧ « مدنية » .
(٥) الحشر ١٣ « مدنية » .

بالضآلة والانكماش ، والبخل أيضا صفة متأصلة فى نفوس كثير من العرب ، نظراً لحالات القحط الكثيرة ، ومن هنا نفهم لماذا يلح القرآن فى آيات كثيرة على ذم البخل ، ونفهم موقف أهل الردة بعد وفاة الرسول الذين لم يعترضوا على الصلاة والصوم ولكنهم اعترضوا على دفع الزكاة . وعرفنا أيضا أن العربى يقاوم الخوف بالتهور فى الشجاعة ، ويقاوم البخل بالتهور فى الكرم . ثم جاء الإسلام فدعا إلى الوسطية وأقام التوازن بين الخوف والشجاعة ، وبين البخل والكرم . وأهم نعمتين اهتم بهما القرآن وذكر بهما المسلمين هما : الأمن من الخوف والإطعام من الجوع ، وهما نعمتان - كما عرفنا آنفا - منتزعتان من واقع البيئة العربية .

فالمنافق ببخله وجبنه أقل من المشرك والجاهلى ، لأن الجاهلى قد قاوم النفاق بطريقته البدائية ، والمشرك - وإن كان مشركا - فهو واضح فى موقفه ، أما المنافق فهو مريض مزيف ، مثله « كمثل الشاة بين الغنمين »[1] كما قال الرسول ﷺ ، وهو فى الوقت نفسه لا يصل إلى المسلم ، فهو لا يتوكل على الله ولا يثق به ، والتوكل يحمى المسلم من صفة النفاق ، لأنه فى التحليل الأخير ، بخل وجبن ، والمسلم بعيد عن هذا ، لأنه متوكل على الله ، وقد ضمن له أن يطعمه من جوع وأن يؤمنه من خوف .

***

وهكذا نجد صفة « النفاق » تدلف بنا مباشرة إلى انحراف آخر ، فقد حذر القرآن - وبنوع خاص فى آياته المدنية - من أن التوكل وهو مفهوم متطور ومنضبط لصفة التوقع ، قد ينحرف إلى التواكل ، ونبه إلى الشعرة الدقيقة جدا ، والتى تفصل بين هذين المصطلحين ، فالتوكل استنفار للقوة الإنسانية ، وأخذ بالأسباب والاستعدادات . ثم ترك المنافذ مفتوحة أمام الاحتمالات ، وبذلك يحمى المرء نفسه من اليأس القاتل ، ومن الغرور القاتل أيضا « فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ، إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[2] « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت

---

(١) تفسير النسفى ١٧/١ .

(٢) آل عمران ١٥٩ - ١٦٠ « مدنيتان » .

عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين »[1] « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »[2] . فالأمر بالاستعداد والأخذ بالأسباب مطلوب ، على ألا يصل ذلك إلى حد الغرور وسد الباب أمام الاحتمالات الأخيرة ، انها الموازنة الدقيقة التى تتميز بها الوسطية الإسلامية ، وقد بدت واضحة فى المفهوم الايجابى لمعنى التوكل .

أما التواكل فهو يحيل الإنسان إلى طفل لا يستنفر ذاته ، وانما يعتمد على الآخرين فى حل مشكلاته ، إنه يتخيل أن السماء تد تمطر ذهبا ، أو أن السعى فى مناكب الأرض يتعارض مع التوكل . وهو فى كل ذلك يخفى نفسا مريضة عاجزة ، قدأجبرتها الظروف التاريخية القاسية على الخلود إلى الراحة وانتظار المفاجآت التى تحل العقد .

وقد سد القرآن الكريم المنافذ التى تؤدى إلى صفة التواكل كمرض نفسى ، وجعل المسلم يجابه الواقع ويتحمل المسئولية ، ويبتعد عن كل شىء يصادر تلك المسئولية ، ويحيله إلى طفل يتلقى . فهو يلح على بشرية الأنبياء « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون »[3] وأنهم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق »[4] ويجابه تعلات المشركين الذين يتمسكون بخرق النواميس الطبيعية ويطالبون النبى بأن يفجر لهم الأنهار ، أوتكون له جنة ، أو يسقط السماء كسفا ، أو يأتى بالله والملائكة ، أو يكون له بيت من زخرف ، أو يرقى إلى السماء - يجابه القرآن تلك التعللات ، ويدعوهم بلغة حاسمة إلى الارتباط بالواقع « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا »[5] .

---

(١) التوبة ٢٥ « مدنية » .
(٢) الانفال ٦ « مدنية » .
(٣) الانعام مكية .
(٤) الفرقان .
(٥) الاسراء ٩٣ - ٩٥ .

حقا إن المسلم يؤمن بوجود قوة عليا ، ولدية استعداد للإيمان بالغيبيات وبالعوالم الأخرى ، ولكن هذا الاستعداد لا يصل إلى التصادم مع الأسباب والمسببات ، لقد علمه القرآن أن الحق يبطل السحر ، وأن هاروت وماروت لا يضران أحدا إلا باذن الله ، وأن التلصص على السماء لسماع الغيب قد بطل منذ أن امتلأت حرسا شديدا وشهبا ، وأن الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن له الرحمن . وأن المسلم يؤمن باله واحد ، وقد أمره هذا الإله بالعمل والأخذ بالأسباب ، وقد أمره فى الوقت نفسه بالتوكل والاعتماد عليه ، فهو يطيع الله فى كلا الأمرين ، إن فكرة التوحيد قد خلصته من أشياء كثيرة ، ولكنها لم تلغ عنده صفة التوقع والتهيؤ والانفتاح أمام الطوارئ التى لم تكن فى الحسبان .

***

وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأصبحت الجزيرة العربية موحدة تحت واية الإسلام ، وأعد الرسول ﷺ المسلمين لحمل الأمانة والسير بها فى ربوع الدنيا ، فالإسلام رسالة عالمية ، والرسول بعث للناس كافة ، وقد مهد قبل وفاته لذلك ، فبعث الوفود ، وأرسل الكتب ، وهيأ للحملات خارج الجزيرة العربية .

وان القرآن الكريم يصاحب هذا التطور خطوة فخطوة ، فبعد أن أعد النفوس للتاريخ ووجهها نحو الوسطية الإسلامية ، أى نحو الانضباط والعدالة ، وحذر من الإنحرافات المتوقعة ، جعل يوجه العرب - بصورة أكثر وضوحا - إلى الانتقال بالرسالة من مرحلة المحلية إلى مرحلة العالمية . لقد عرفنا أن القرآن يمثل الرسالة بالجانب الخصب والمعطاء من الطبيعة ، فهى كنوز ينبسط على الأرض ، وينشر الأمن ، وقد أراد الله لهذا النور أن ينتصر ، على الرغم من قوى الظلام المحيطة به « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »[1] .

---

(١) التوبة ٣٢ - ٣٣ .

وجاء هذا الوعد بانتشار النور قبل آخر سورة ، فان سورة التوبة[1] تهيىء المسلمين - أكثر من غيرها - للانتقال بالدعوة إلى مجال عالمى ، انهم تعدهم للإختبار وتحمل الأمانة الكبرى « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخـذوا من دون الله ولا رسـوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون » (الآية ١٦) . وتبين لهم أن الدين ليس عبـادات وشعائر فحسـب ، ولكنه أيضا مسئولية والتزام « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لايستوون عند الله والله لا يهدى القـوم الظالمين » (الآية ١٩) . ومن هنا أخذت ترغبهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (الآية ٧١) . وإلى اسـتنفار فرقة منهم تتحمل مسئولية الدعوة والانـذار والتحـذير (الآية ١٢٢) . وأخذت تحرضهم على الجهاد والقتال بطريقة واضحة . وبعبارات مستفتحة بالطلب وبأدوات التحريض والإستثارة « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين » (الآية ١٣) . « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصـير » (الآية ٧٣) . « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » (الآية ١٢٣) .

ان هذه السورة هى سورة القتال ، ومليئة بالوعيد والتهديد ، حتى انها لم تستفتح « ببسم الله الرحمن الرحيم » شأن غيرها من السور ، وهى تركز على الصفات الايجابية عند المسلم والتى تهيئ له النصر ، وتحذر من السلبيات والانحـرافات التى تسبب الخذلان ، فهى تحث المسلين على التوكل ، وتنمى هذه الصفة عندهم ، لانها تؤمنهم من الخوف وتشدهم إلى المبدأ ، وتحميهم من الغرور من ناحية ، ومن اليأس القاتل من الناحية الأخرى « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (الآية ٥١) . وخلصتهم من كل ما يشغلهم عن العقيدة والمبدأ وأعلنت ذلك بأسلوب صريح لا يقبل الالتواء « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل ان كان اباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم

---

(١) سورة التوبة مدنية إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان ، وعدد آياتها ١٢٩ آية ، وهى آخر سورة نزلت كما فى أحد الترتيبات التى جاءت فى الاتقان وفى ترتيب المصحف هى السورة قبل الأخيرة ، فلم تنزل بعدها إلا سورة النصر .

وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله يهدى القوم الفاسقين » (الآيتان ٢٣ و ٢٤) .

وعلى العكس من ذلك حذرت تلك السورة من صفة « النفاق » واهتمت بتعريتها اهتماما كبيرا ، حتى ان مادة النفاق وردت فى احدى عشرة آية من تلك السورة ، بينما وردت فى القرآن كله فى سبع وثلاثين آية . وقد وقفت منهم السورة موقفا واضحا ودعت الى كشفهم وتطهير الصفوف منهم ، لأنهم بمرضهم وانحرافهم الذى لا شفاء منه يسيئون الى المسيرة « لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين » (الآية ٤٧) . « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قال استهزئوا ان الله مخرج ما تحذرون » (الآية ٦٤) .

***

ولم يمض على هذه السورة كثيرا حتى تحقق وعد الله ، وظهر نوره وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، كما وعد فى السورة نفسها .

ان التنبؤ والحديث عن الغيب كان ينبع من خلال هذا الدين الذى انبنى على نسق وسطى كامل ، شرحه وحدد مبادئه وتحدث عن ايجابياته وحذر من انحرافاته . فهو تنبؤ يحترم العقل والانسان ، لأنه يقوم على أسباب لها نتائج مستقبلية .

حقا ، ان الله علام الغيوب وهو على كل شىء قدير . ولكنه يريد فى الوقت نفسه ان يعلم المسلمين الطريق الواقعى ، وأن يكون حديثهم عن المستقبل مبنيا على أسس واستعدادات مدروسة ، لقد قفل الاسلام باب المدهشات والعجائب وأعد لمرحلة ناضجة ، قد تهيأ فيها البشر للاعتماد على العقل ، والاسترشاد بالمبادىء الانسانية العامة ، بعد أن ختمت النبوة وقفل باب الوحى .

نزلت سورة النصر بمنى فى حجة الوداع[1] ، وبعد سورة التوبة التى برزت فيها - بصورة أوضح - الدعوة الى العالمية ، نزلت هذه السورة تبارك النجاح الذى حققه هذا الدين الوسط وانتصاره على المعوقات ، وتعلن أن الرسول قد أدى مهمته وبلغ رسالته ، ولم يبق بعد ذلك الا التسبيح والاستغفار ، وانتظار لقاء الله .

---

(١) فتعد مدنية وهى آخر ما نزل من السور .

وقد أحس من أوتى شفافية من المسلمين بأن الله ينعى لهم نبيه . قال هذا ابن عباس ، وأكد الرسول تنبؤه وقال « لقد أوتى هذا الغلام علما كثيرا »[1] . ان ابن عباس قد تنبأ من احساس بأن الرسول معقود وجوده بهمته ، فاذا ما انتهت وكملت فحق له أن يعود الى مرسله وأن يستريح . وقد خطب ﷺ بعد نزول هذه السورة فقال «ان عبدا قد خيره الله بين الدنيا ، وبين لقائه والآخرة . فاختار لقاء الله »[2] وفعلا لم يمض على نزولها سبعون يوما ، الا ولقى ربه ، ولذلك سميت سورة التوديع .

واذا استعرضنا الآيات التى رأى العلماء أنها اخبار بالغيب ، فسنجد أن معظمها يعود بنا الى التنبؤ بستقبل الوسطية ، وقد بنيت على أسس سابقة ، محددة ومدروسة . فتتحدث عن نجاحها الحتمى ، وتقدم الوعد لمن يتمسك بها ، وتنذر بالوعيد لمن ينحرف عنها ، قال تعالى : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين »[3] « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[4] « لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ، محلقين رءوسكم ومقصرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا »[5] « أم يقولون نحن جميعا منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر »[6] .

---

(١) تفسير الرازى ٥٢٣/٨ .
(٢) تفسير الرازى ٥١٨/٨ .
(٣) الانفال ٧ « مدنية » .
(٤) النور ٥٥ « مدنية » .
(٥) الفتح ٢٧ « مدنية » . وقد نزلت هذه السورة فى الطريق عند الانصراف من الحديبية.
(٦) القمر ٤٤ - ٤٦ « مدنية » والعجيب أن هذه السورة مكية ما عدا تلك الآيات الثلاث .

ان هذه الآيات التى ذكرها العلماء على انها اخبار بالغيب[1] ، انما هى آيات تتحدث عن مستقبل هذا الدين الوسط ، وقد صدق الله وعده ، وأثبت التاريخ صدق هذه التنبؤات ، لأنها نابعة من مبادىء متماسكة ، لها أصالتها وجذورها فى النفس العربية من ناحية ، ولا تتعارض - بفطرتها وطبيعتها - مع النظرة الانسانية العالمية من الناحية الأخرى .

***

وبعد ... فقد طالما تحدث الدارسون عن اعجاز القرآن ، فمنهم من كان يراه فى تأثيره ، أو فى تعبيره عن الضمائر ، أو فى اخباره عن الغيب ، أو فى التشريعات والمبادىء التى تهدى للخير ، أو فى عدم التناقض والاختلاف طيلة ثلاث وعشرين سنة هى مدة نزوله . ومنهم من كان يراها فى غير ذلك .

وقد استمر القرآن الكريم منذ نزوله محفوظا ، يتلى ويتجمع حوله المسلمون ، ويجدون فيه شيئا ، قد لا يستطيعون وصفة بالدقة ، ولكنهم يحسون به . قل هو كالواحة وسط الهجير ، أو كالظل بعد شمس محرقة ، أو النور بعد ظلام دامس ، أو الغيث بعد عطش شديد ، أو النخلة ذات الظل والثمر ، يهتدى اليها الضال بعد صحراء قاحلة حارة . وغير من ذلك من تشبيهات ليست من باب الاطراء الأدبى ، بقدر ما هى منتزعة من جوهر المكان ، ومعبرة عن الجانب المعطاء والخير فى الطبيعة .

وهذا الفصل مساهمة جديدة فى الكشف عن ناحية من نواحى اعجاز القرآن ، وهى استثارة الروح العربى ولمس خصائصه ، مما جعله يستجيب اليه . ثم تنمية هذا الروح ووضعه داخل اطار التاريخ ، ثم الانتقال به من المحلية إلى العالمية مع الحرص على خصائص المحلية الايجابية وعدم التصادم معها ، لأنها هى التى ستنهض برسالة العالمية ، وستمنحها شخصية مميزة ، لا تضيع فى التيارات الأخرى ، كما سنرى فى الفصل القادم إن شاء الله .

---

(١) اعجاز القرآن ١/٧٤ .